منشورات جامعة وادي النيل
مجلة النيل للآداب والعلوم الانسانية
(ISSN: 1858 – 7054)
المجلد الثالث، العدد الثاني، 2022م
http://www.nilevalley.edu.sd

وصف الفاكهة وطبيعته عند شعراء القرن الرابع الهجري (دراسة تحليلية نقدية)

ياسر محجوب عبد الرحيم محمد

كلية المعلمين- جامعة وادي النيل
المؤلف:YASER1970@ gmail.com

المستخلص

تناقش هذه الدراسة وصف الفاكهة وطبيعته عند شعراء القرن الرابع الهجري الذي امتاز بنهضة علمية وأدبية؛ فقد ظهر فيه كثير من أعلام البيان من شعراء وغيرهم، فهدفت الدراسة إلى تحديد الأشعار التي نظمها هؤلاء الشعراء في وصف الفاكهة؛ ذلك لأن الوصف اتسع في هذا العصر وتطوَّر تطوراً واسعاً لتفتّح الحياة وارتباط الشعر بها، فكان للوصف غلبة وقوة في الشعر العباسي. وتتمثل مشكلة الدراسة في الإجابة عن هذا السؤال: هل عالجت الأشعار القديمة موضوع الفاكهة؟ وقد اعتمدت الدراسة دواوين الشعراء والمجموعات الشعرية القديمة مصدراً لها. واتبع الباحث المنهج الوصفي لذلك. وتوصلت إلى نتائج من أهمها: أن الشعراء العباسيين في القرن الرابع الهجري عنُوا بوصف الفاكهة وتصويرها، وفصَّلوا فيها ونوعوا في وصفها فوصفوا: لونها، شكلها، طعمها وحجمها، بل وامتدَّ وصفهم إلى أشجارها وبساتينها وربطوا كلَّ ذلك بعواطفهم وأحاسيسهم فجاءت تشبيهاتهم وصورهم الفنية للفاكهة مرتبطة بما له قيمة عندهم فوصفوها بالمحبوبة تارة وبالأحجار الكريمة من زبرجد، ياقوت، مرجان وعقيق وغيرها تارة أخرى.

كلمات المفتاحية: الوصف- الفاكهة- القرن الرابع الهجري.

Fruits Description and its Nature in the Fourth Hijri Century Poets (Analytical Critical Study)

Yasir Mahgoub Abdelraheem Mohammed

Faculty of Teachers, Nile Valley University

Author: YASER1970@GMAIL.COM

Abstract

The study discusses the description of fruits among the poets of the fourth century AH, which was characterized by a scientific and literary development. There were many distinguished poets. The study aimed to determine the poems that arranged in describing fruits. This is because the description expanded in this area and developed widely to open life and the connection of poetry with it, so the description prevailed and strength in Abbasy poetry. The study adopted the collections of old poets and poetic groups as its source. The most important results reached were; that these poets described the fruit and detailed it. So they described: its color, its shape, its taste and its size. Their description extended to fruit trees and their

orcharcds and linked all that with their feelings and values. They described it as their beloved at times, and with precious stones at other times, such as aquamarine, coral, agates and others.

Keywords: Description, fruits, the fourth Hijri century.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وبعد:

تتناول هذه الدِّراسة وصف الفاكهة عند شعراء القرن الرابع الهجري من أمثال: أبي بكر الصنوبري (ت334هـ)، أبي الفتح كشاجم (ت360هـ)، السَّرِي الرَّفَّاء (ت366هـ)، أبي طالب المأموني (ت383هـ)، أبي الفتح البستي (ت400هـ)، وغيرهم من الذين عاشوا في العصر العباسي وقد ضمَّنوا الفاكهة أشعارهم واهتموا بوصفها؛ لحبّهم إياها ولما لهم من إلمامٍ بفوائدها وعظيم نفعها ومن جانب آخر تعكس هذه الدراسة ما كان من شأن الفاكهة عند شعراء العصر العباسي في تلك الفترة.

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور الشعراء في وصف الفاكهة وربط صورها بمظاهر الجمال الطبيعي في المرأة وغيرها من عناصر الطبيعة الأخرى، مع ذكر أنواعها المختلفة، وسعيهم الحثيث للفت الانتباه إلى قيمتها الجمالية والغذائية من خلال ما وصفوه بها من أشعار.

كان سبب اختيار هذا الموضوع ملاحظة الباحث لاهتمام كثير من شعراء القرن الرابع الهجري بالفاكهة فأراد أن يدرس ما نظموه فيها للبحث عن علاقة هذا الوصف بالبيئة الطبيعية التي عاشوا فيها ومدى تطور الذوق الفني لدى الشاعر العربي الذي تحول من وصف الناقة والصحراء إلى وصف الطبيعة والفاكهة لتبيين طبيعة الصورة الفنية المرتبطة بالشعور والوجدان والمعبرة عن رقة الشاعر العباسي، عِلاوة على ما تلقى الفاكهة من وقع طيب في النفس بما فطرت عليه من حبِّ الملذَّات، ولما للفاكهة كذلك في نفس الباحث من وقع خاص كما للكثيرين، وكلُّ هذا يدعو للوقوف على شكلها، طعمها، لونها، رائحتها وحجمها، الشيء الذي دفع الباحث إلى اختيار هذا الموضوع.

المنهج المتَّبع في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي؛ فهو يصف ويحلِّل الأبيات الشعرية التي نظمها هؤلاء الشعراء في موضوع الفاكهة.

أمَّا فيما يتعلق بالدراسات السابقة عن هذا الموضوع فقد ورد وصف الفاكهة متناثراً هنا وهناك في ثنايا كتب الأدب واللغة ولم يجد الباحث دراسات مستقلة لوصفها، فسعى جاهداً ليقف على وصف الفاكهة عند المبرزين من شعراء القرن الرابع الهجري.

اعتمد الباحث في مصادر هذه الدراسة ومراجعها على القديم والحديث، وأهمها في كتب التُّراث العربي القديم: دواوين الشُّعراء، ومن الكتب القديمة: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: للثعالبي، عيون الأخبار: لابن قتيبة، محاضرات الأدباء ومحاورات الشُّعراء والبلغاء للرَّاغب الأصفهاني، ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، نهاية الأرب في فنون الأدب: للنّويري وغيرها. أما المراجع الحديثة فقد تنوَّعت بين الكتب ذات الصِّلة بالموضوع وغيرها.

وقد وجد الباحث بعض الصعوبات التي تكمن في البحث عن الأبيات الشعرية موضوع الدراسة المتناثرة في ثنايا دواوين الشعراء وكتب الأدب.

مصطلحات البحث

الوصف هو ما دل على الذات باعتبار معنى هو المقصود من جوهر حروفه، أي يدل على الذات بصفة، كأحمر، فإنه بجوهر حروفه يدل على معنى مقصود، وهو الحمرة، فالوصف والصفة مصدران، كالوعد والعدة، والمتكلمون فرقوا بينهما، فقالوا: الوصف: يقوم بالواصف، والصفة: تقوم بالموصوف، وقيل: الوصف هو القائم بالفاعل. (الجرجاني. 1403هـ-1983م، 252)

الفاكهة: الْفَاكِهَةُ مَا يُتَفَكَّهُ بِهِ أَيْ يُتَنَعَّمُ بِأَكْلِهِ رَطْبًا كَانَ أَوْ يَابِسًا كَالتِّينِ وَالْبِطِّيخِ وَالزَّبِيبِ وَالرُّطَبِ وَالرُّمَّانِ. (الفيومي: ج2، 480)

القرن الرابع الهجري: في التقويم الإسلامي أو التقويم الهجري هو القرن الذي يطابق ما بين السنوات من 913 إلى 1010 للميلاد وقد شهد انحلال في الحياة العامة من جهة، كما شهد في الوقت نفسه ارتقاء بالحياة الأدبية وعهد نهوض بالحكم عليها من جهة أخرى (مومني: 64).

تعريف الفاكهة

الفاكهة لغة:

(فَكَهَ) الْفَاءُ وَالْكَافُ وَالْهَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى طِيبٍ وَاسْتِطَابَةٍ. مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْفَكِهُ: الطَّيِّبُ النَّفْسِ. وَمِنَ الْبَابِ: الْفَاكِهَةُ، لِأَنَّهَا تُسْتَطَابُ وَتُسْتَطْرَفُ. وَمِنَ الْبَابِ: الْمُفَاكَهَةُ، وَهِيَ الْمُزَاحَةُ وَمَا يُسْتَحْلَى مِنْ كَلَامٍ. وَمِنَ الْبَابِ: أَفْكَهَتِ النَّاقَةُ وَالشَّاةُ، إِذَا دَرَّتَا عِنْدَ أَكْلِ الرَّبِيعِ وَكَانَ فِي اللَّبَنِ أَدْنَى خُثُورَةٍ ; وَهُوَ أَطْيَبُ اللَّبَنِ" (ابن فارس: 1400هـ - 1979، مادة فكه).

و"التفكُّه: أكل الفاكهة". (الهنائي:1988، 152) ويتضح من كلّ ما ذكر أنها تشير إلى الشيء المستطاب والمستطرف.

الفاكهة اصطلاحاً:

عُرِّفت الْفَاكِهَة بأنّها: "الثَّمر كُلّه، ويقْصد بهَا التَّلَذُّذ دون التَّغذي، والقوت بِالْعَكْسِ" (الحنفي. ب.ت، 697) وقد اخْتلف فِي الْفَاكِهَة وأنواعها "فَقيل: كل الثِّمَار فاكهةٌ وَقيل: لَا يُسمى مَا كَانَ من التَّمْر وَالْعِنَب وَالرُّمَّان فَاكِهَة وَاحْتج بقول الله فِيهِمَا فاكهةٌ ونَخْلٌ ورُمَّانٌ﴾(سورة الرحمن،الاية:68)و قوله فِيهَا فَاكِهةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الأكْمامِ ﴾(سورة الرحمن، الاية:11)فَقيل لَو كَانَ النّخل وَالرُّمَّان نَوْعَيْنِ من الْفَاكِهَة لما خصصا من سَائِر أَنْوَاعهَا وَلَيْسَ هَذَا بِحجَّة لِأَن الْعَرَب تفعل مثل هَذَا تَأْكِيدًا" (ابن سيده: 1996، ج3، ص188) وَفِي التَّنْزِيل قوله تعالى: أُولئكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ، فواكِهُ وهُمْ مكْرَمُونَ.

وقد أضاف صاحب الكليات معنىً جديداً أبرز فيه ما للفاكهة من متعة غذائية مهمَّة بقوله: "الفاكهة هي كل مَا يتلذذ بِهِ وَلَا يتقوت لحفظ الصِّحَّة." (الحنفي: 675). ويتضح مما سبق ذكره من تعريف الفاكهة أنها كلّ ما يتنعم بأكله رطباً أو يابساً من أجل التلذذ لا من أجل الحاجة إلى الطعام. وقد لا يدرك الكثيرون القيمة الغذائية المهمة للفاكهة ومع ذلك يهتمون بها ويسعون للحصول عليها، مما جعل كثيراً من الناس أن اتخذوها سلعة يتاجرون فيها، وصنفوها إلى رطبة ويابسة ومجففة وبحسب فصول السنة وغيرها من تصنيفات أخرى.

ولهم في أكل الفاكهة أقوال من مثل: "لا يُؤكل من الفاكهة إلا ما نضج على شجره، ويلقى ثفله وعجمه، ويؤكل على ريق النّفس" (الدينوري: 1984م، ج3،317)، وقولهم: ابتكر الفاكهة: بمعنى أكل باكورتها؛ وهي أول ما يدرك منها (الزَّبيدي: ب.ت، ج10، 239). ويُقَالُ: "كُلُّ الْفَوَاكِهِ فِي إِبَّانِهَا؛ أي في وقتها" (الجوهري: 1987م، ج5، 2066). وغيرها من أقوال.

وستتناول الدراسة سبعة عشر صنفاً من أصناف الفاكهة أوردها الشعراء في أشعارهم وتأتي مرتبة بحسب كثرة كل لون منها:

١. الرُّمان:

"رُمَّان مفردها رُمَّانة: جنس شجر مُثمر من فصيلة الآسيَّات، ساقُه ملساء، وفروعه مُنتصبة، أوراقه متقابلة، أزهاره كبيرة حمراءُ اللَّون، ثمارُه كرويَّة ضخمة ذاتُ قشرة صُلبة تحْوي بُذورًا صغيرة ورديَّة اللَّون فيها سائل مُنعِش يُصنع منه شراب الرُّمَّان، ويؤكل حَبُّه" (عبد الحميد:1429هـ-2008م، ج2، 945). وقد أتى كشاجم بوصفٍ بديعٍ للرُّمان في حالين في قوله - من المنسرح (كشاجم: 1417هـ - 1997م، 47):

ولاحَ رمَّانُــنا فزيَّننـا بين صحيحٍ وبينَ مفتــوتِ

من كلِّ مصفّرةٍ مزعفرةٍ تفوقُ في الحسن كلَّ منعوتِ

كأنها حقةٌ فإن فُتِحتْ فصُرةٌ من فُصُوص ياقــوتِ

فقد وصفه في حال كونه صحيحاً مشبهاً له بالحقَّة أمَّا إذا فُتَّ فهو فصوص من ياقوت. واستعان بالبديع ليزيّن صورته هذه بطباق الإيجاب بين (صحيح ومفتوت) وكذلك ليبين استخدام الرمان في حالين. وورد التشبيه نفسه عند أبي طالب المأموني إذ ذهب مذهب سابقه في تشبيه الرمان بالحُقِّ وبذوره بحمر اليواقيت في قوله - من السَّريع (الرَّاغب الأصفهاني: 1420هـ، ج1، 718):

حقّ خليع ناصع دهنه مستودع حمر اليواقيت

وللمأموني كذلك في وصف الرُّمان عند تفتيته بلونه الأحمر قوله - من السَّريع:

رمانة مَا زلت مستخرجا فِي الْجَام من حقتها جوهرا

الجام أرض وبناني حيا تمطـر منـه بـرداً أحمــرا

ومما أدَّى إلى جودة المعنى في هذين البيتين مجيئه بالتشبيه المفروق في جملة من التشبيهات البليغة فقد شبه الوعاء الذي يفتُّ فيه الرمان بالأرض وبنان الشاعر بالمطر وما بداخل الرمان بالبرد الأحمر فجاء التشبيه أقوى وأجمل.

ومن بديع ما وصف به ابن شاه الرمانة وجاءت تشبيهاته لها أكثر دقة فكان لها الأثر الجلي

في قوة المعنى قوله- من الطَّويل (الرَّاغب الأصفهاني: 1420هـ، ج1، 718):

ورُمانةٍ شبهتُها إذ رأيتُــها بِثَدْيِ كَعاب أو بحُقّةِ مَرْمَــرِ

مُنَمْنمةٍ صفراءَ نُضّد حولها يواقيتُ حمرٌ في مُلاءٍ مُعَصْفَرِ

لها قشرُ عِقيان ورأس مشرق وأغصان خيري وأوراق عبهري

ساقه إعجابه بالرمانة أن جمع لها بين تشبيهين: تشبيه مفروق في البيت الأول، وتشبيه جمع في البيت الثاني، فقد شبّهها بشكلها المستدير ولونها الأصفر والأحمر بثدي كعاب تارة وبحقة مرمر تارة أخرى. وشبه قشرها بقشر العقيان، وأغصانها بأغصان الخيري، وأوراقها الناعمة بأوراق النرجس. أضاف أحمد بن فرج لمنظر الرمان الجميل، بطعمه اللذيذ معنى آخر فقد شبهه برضاب المحبوب، وذلك في وصفه لرمانٍ أُهدي إليه إذ سُرَّ به فكتب أبياتاً إلى من أهداه له، فقال - من المتقارب (التلمساني: 1900م، ج1، 468):

ولابســة صدفاً أحمــرا أتتك وقد مُلئـت جوهــرا

كأنّك فاتح حقّ لطيــفٍ تضمّن مرجانه الأحمــرا

حبوباً كمثل لثات الحبيب رضاباً إذا شئت أو منظـرا

وللسّفر تعزى وما سافرت فتشكو النّوى أو تقاسي السّرى

بلى فارقت أيكها ناعمـاً رطيباً وأغصانـها نضّـرا

وجاءتك معتاضةً إذ أتتك بأكرم من عودها عنصـرا

بعودٍ ترى فيه ماء النّدى ويورق من قبل أن يثمـرا

هدية من لو غدت نفسه هديّتـه ظنّـه قصّـرا

استعان الشاعر أحمد بن فرج بالمجاز وأتى بالاستعارة المكنية في تشبيهه للرمانة بالمحبوبة التي أتت إلى محبوبها وقد تزينت بالصدف الأحمر المرصع بالجواهر، ثمَّ ما لبث أن شبه الرمانة بالحقِّ وما بداخله من حبوب بالمرجان، وطعمه كطعم رضاب المحبوب والملاحظ أنه مزج صوره البصرية بصورة ذوقية استطاع من خلالها إبراز المعنى بوضوح. وأتى كذلك من البديع ما جمّل به أبياته فقد جانس بجناس غير تام بين (حبوباً والحبيب) وبين (النوى والسرى). واستطاع بهذه اللوحة الشعرية أن يعبر عمّا بداخله تجاه هذه الهدية حيث سكب فيها من البيان والبديع ما أمتع به مرسل الهدية عرفاناً وشكراً.

وبينما استحسن كثير من الشعراء الرمان وأجادوا وصفه، إلا أنَّ أبا هلال العسكري ذكر أنه لا يعرف شيئاً مرضياً في الرُمان ومع ذلك أنصفه، فوصفه وصفاً دقيقاً استقصى فيه مراحل نموِّ ثمرته حتَّى تنضج بقوله - من الوافر (أبو هلال العسكري: ب.ت، ج2، 37):

حكى الرُمـانُ أولَ ما تبــدَّى حقاقَ زبرجدٍ يحُشيــنَ دُرا

فجاءِ الصَّيفُ يحشـوهُ عقيــقاً ويكسوهُ مرورُ القيظِ تبــرا

ويحكي في الغصونِ ثديَ حُور شققنَ غلائلاً عنهن خضرا

سلك الشاعر مسلك سابقيه في الإتيان بمشبه به مكرور، لكن تتابع الصور البصرية لمراحل نضج الرمان مع عقد الصلة بينها وبين زمان نضجه كان له من الأثر ما أمتع به. فقد شبه الرمان بحقاق من زبرجد وما بداخله بالدرِّ ثم ما يلبث في الصيف أن يصير عقيقاً، ثم ينتقل مستخدماً تشبيه التمثيل فصوَّر الرمان وقد برز على غصون أشجاره بثدي الحور اللاتي ارتفع نهدهن، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من بروز شيء مستدير أصفر في شيء مستطيل أخضر. فجاءت صوره غاية في الجمال، وزادها جمالاً مجيئه بطباق الإيجاب بين كلمتي (يحشوه ويكسوه) ليبين من خلاله مراحل نضج الرمان. ومما لا شك فيه أن الفعل المضارع في الكلمات: يحشين، يحشوه، يكسوه، يحكي، أحدث إيقاعاً جميلاً في الأبيات.

ويكثر ذكر الرُمان في أشعار الغزل إذ يشبه به الشَّعراء ثُدي الكواعب ومن ذلك – غير ما ذُكر آنفاً - قول المتنبي - من الطَّويل (ابن معقل: 1424هـ-2003 م، 84):

وقابَلني رُمَّانتا غُصنِ بانةٍ يَميل به بدرٌ ويُمسكه حِقْفُ

وذهب أبوبكر الصنوبري هذا المذهب متغزلاً في قوله - من السريع (الصنوبري: 1998م، 370):

يا غصناً وجنتُهُ زهـرة وشعره المسبلُ أوراقُـهُ

يُثمر رُمَّاناً على صدره تجنيه بالألحاظ عُشَّاقُهُ

ولم يقف إعجاب الشعراء بالرمان فحسب بل امتدَّ إلى زهرته - لجمالها وصفاء لونها الأحمر- التي تُسمى الجُلَّنار، فوصفها أبو الحسن الشّمشاطيّ مشبهاً لها بالخدود الخجلى تارة وبالعقيق تارة أخرى وكان لحضور اللون قوته في هذه الصورة البصرية في قوله - من الخفيف (النّويري: 1423هـ، ج11، 105):

وبدا الجلّنار مثل خدود قد كساها الحياء لون عُقـار
صبغة الله كالعقيق تراه أحمراً ناصعاً لدى الاخضرار

وقال أبو فراس الحمداني مشبهاً ذيول الجلنار بذيول الغانيات – من الطويل (الدويهي:1414- 1994م، 189):

ويومٍ جلا فيه الربيعُ رياضَهُ بأنواعِ حَلْيٍ فوق أثوابِهِ الخُضْرِ
كأنَّ ذُيُولَ الجُلَّنـارِ مُطِلَّـةً فُضُولُ ذُيُولِ الغَانياتِ من الأَزْرِ

وقال في موضع آخر من مجزوء الرجز (أبو فراس الحمداني: ب.ت، 123):

وجلّنار مُشـرقٍ على أعالي شَجَرَهْ
كأنّ في رُؤُوسِهِ أصْفَـرَهُ وأحْمَـرَهْ
قُرَاضَةٌ من ذَهَبٍ في خِرَقٍ مُعَصْفَرَهْ

اتخذ الشاعر من تشبيه التمثيل وسيلته في هذه الأبيات؛ إذ شبَّه الجلنار المشرق باللونين الأصفر والأحمر على أعالي شجرة خضراء، بقراضة من ذهب على خرق ثوب ملون؛ فهي صورة منتزعة من متعدد، صورة قطع صغيرة ملونة صفراء وحمراء على مستطيل أخضر. وقريب من هذا التشبيه تشبيه نظمه ابن وكيع للجلنّار في قوله – من المجتث (ابن ظافر: ب.ت، 84):

وجلنـــارٍ بهـيٍّ ضِرامُـهُ يتوقَّـدْ
بدا لنا في غصـــونٍ خضرٍ من الريّ ميدْ
يحكي فصوصَ عقيقٍ في قُبَّةٍ من زبرجـدْ

فالشاعر رسم لوحته كسابقيه مستعيناً بتشبيه التمثيل حتى تأتي صورته أكثر بياناً وأوضح دلالة؛ فشبه الرمان وهو على غصونٍ خضراءَ متمايلة بفصوصٍ من عقيقٍ أحمر في قبةٍ من زبرجد خضراء. ومما تميَّزت به هذه الأبيات أن الشاعر ببراعته الفنية أضفى عليها عنصر الحركة فكان لتمايل الأغصان أثره في إبراز دقة المعنى.

وهكذا صوَّر كثير من الشعراء إعجابهم بالرمان وبزهرته (الجُلَّنار) وغلب في تشبيههم للرمان بالحق، ثدي الكعاب، وبذوره بأنواع مختلفة من الجواهر كاليواقيت وغيرها كما تفننوا في الاتيان بأنواع متعددة من التشبيهات مع تنوع في أدوات التشبيه من مثل: (الكاف، مثل، حكى، كأنَّ، شبه).

٢. التَّمر:

عُرِّفت شجرة التَّمر بأنَّها: "جنس شجر من فصيلة النَّخليّات أنواعه عديدة، تعيش جميعها في المناطق الحارّة، ساقُه رفيعة مستقيمة طويلة ذات عُقَد، أوراقه سعفيّة ريشيّة الشّكْل. يزرع للزّينة أو لثماره، مستطيلة الشّكْل لذيذة الطَّعم الّتي تعدّ من أفضل الثِّمار المغذّية وهي التّمر والبلح، (مذكّر ويجوز تأنيثه) وترجع زراعة هذه النَّخل إلى سنين بعيدة" (عبد الحميد:1429هـ- 2008م، ج3، 2184.) وقد ذكر الله عز وجلّ النَّخل في آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿آفيهما فاكهةٌ ونخْلٌ ورُمَّانٌ﴾(سورة الرحمن، الاية:68). ومراحل ثمرته: "طلع ثمَّ خلال ثمَّ بلح ثمَّ بسر ثمَّ رطب ثمَّ تمر" (ابن منظور:1414هـ، ج2، 414).

كان للطلع عند الشاعر كشاجم وقع خاص مما جعله يهتمَّ بوصفه، وصادف أن أُهدي لكشاجم طلعةً فأعجب بها وبمن أهداها له؛ فعبّر عن ذلك مشبهاً لها بزورق من صندل مملوء بسلاسل من فضّة في قوله - من الكامل (النّويري:1423هـ ب.ت، ج11، 124):

أُفَدِي الّذى أهدى إلينا طلعةً أهدتْ إلى قلب المشوق بلابلا

فكأنّما هي زورقٌ من صندل قد أودعوه من اللّجين سلاسلا

وإعجاب الشاعر هنا يكمن في رائحتها العطرة وشكلها الجميل فجمع بين صورتين بصرية وشمية، كما جمع بينهما مع مزجهما بصورة لمسية في لوحة شعرية أخرى وفيها يصف نعومة الطلع ويشبهه بالحرير ورائحته بالعبير في قوله من الرَّجز (النّويري: 1423هـ، ج11، 125):

ولابس ثوباً من الحريـــر مضمّخ الظَّاهر بالعبيـر

مضمّن الباطن ثوب نور يفترّ عن مكنونة الثّغـور

كأنّما فتّ من الكافور

وله أيضاً في طلعة يصف شكلها الجميل مشبهاً له بسَفَطٍ من لؤلؤ في قوله - من الخفيف (النّويري: 1423هـ، ج11، 125):

قد أتانا الّذى بعثت إلينا وهو شيء في وقتنا معدوم

طلعة غضّة أتتنا تحاكى سفطاً فيه لؤلؤ منظـــوم

ولم يكتف كشاجم بوصف الطلع وإنَّما انطلق يصف أصله فوصف نخلاً على نهر دجلة قديم قد أُختير من أفضل النخل ذاكراً نوعاً من بسره وآخر من تمره وما فيهما من مذاق كطعم العسل فقال من الرجز (ابن حمدون: 1417هـ، ج5، 364):

لنا على دجلة نخلٌ منتخـل نسلفه ماءً ويسقينا عســل

كأنَّما أعذاقُه إذا حمـــل غدائرٌ من شعر وَحْفٍ رَجِل

وفيه عُمْرِيّ كعُمْـرٍ مُقْتَبَـل كذهب الابريز لوناً ومحـل

وجيسوان طعمه يشفي العلل كأنه أطراف ربّـات الكلل

وعظم الآزاذ فيـــه ونبـــل لولا النوى يشدّ منه لهطل

أتى كشاجم في هذه الأبيات بتشبيهات متتابعة أكّد من خلالها براعته في توظيفها لتوضيح المعنى المراد؛ فقد شبَّه أعذاق النخل في كثافة حملها بغدائر من شَعْرٍ حسن مُرَجّل، وشبّه قديم النخل كأنّه في شبابه وقوة عطائه، وشبهه كذلك بالذهب الخالص في لونه ومحله، فاستعان بهذه الصور البصرية والذوقية في قوله: (يسقينا عسل) و(طعمه يشفي العلل). ولتستتم الصورة جمالها أتى من البديع بالجناس غير التام ليزيّن به أبياته وذلك في الكلمات (نخل ومنتخل) و(عُمْرِيّ وعُمْر) و(العِلل والكلل).

بينما وصف كشاجم النخل الوارف على حافة نهر دجلة بالقرب من مجاري الماء، استطاع السَّرّي الرَّفَّاء بما امتلك من شاعرية بارعة أن يصف النخل بعيداً عن مجاري الماء - فقد عُرف عنه مقاومته للجفاف والمحل- فيغوص بعروقه في أعماق الثَّرى ليصل إلى مورد الماء فترتوي وتخضرّ وتصير وارفة الظِّلال لا تختلف عن تلك التي على مجاري الماء وتأكيداً لذلك شبّه ظله بظل الغمام في شدة الهاجرة، حتى الطُّيور غرّدت شَبعى على ثمارها وذلك في قوله - من الكامل (السَّرِي الرفاء: 1996م، 158-159):

وكأنّ ظلّ النّخل حول قبابـــها ظلُّ الغمام إذا الهجير توقّدا

من كلّ خضراء الذّوائـــب زُيّنتْ بثمـارها جِيداً لها ومُقلّـــدا

خرقتْ أسافلُهنّ أعمـــاق الثّرى حتّى اتّخذنَ البحر فيه موردا

شجرٌ إذا ما الصّبحُ أسفَرَ لم ينُحْ للأمن طائره ولكن غـــرّدا

استعان الشاعر بالصورة الاستعارية لإبراز المعنى في قوله (الهجير توقّدا) فشبه الهجير بالجمر وحذفه وأشار إليه بشيء من لوازمه وهو التوقد على سبيل الاستعارة المكنية. وكذلك شبه كل نخلة منها بحسناء وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو إظهار الزينة. ولا يخفى ما أودعته الكناية من جمال في البيت الأخير فتغريد الطيور كناية عن شبعها واطمئنانها وليلفت الانتباه إلى ذلك استخدم طباق الإيجاب بين كلمتي (ينح وغرّدا).

وكذلك من الشعراء الذين وصفوا النخيل الذي ينمو بعيداً عن مجاري الماء أبي هلال العسكري فقد أفرد لها قصيدة مصوراً الهيأة التي وقفت عليها؛ والبهاء الذي كساها ممَّا تروَّت به من ماء ذلكم المكان الذي أطلقت فيه أعجازها حتى نالت مرادها، ثمَّ وصف الطَّلع الّذي يعلوها فيشبهه بالعاج تارة وبالزُّبرجد تارة أخرى في ألوان متعاقبة صفراء ثمّ حمراء في قوله - من الخفيف (أبو هلال العسكري: ب.ت، ج2، 41):

نخيل وقفنَ في معطفِ الرملِ وقوفَ الحبشانِ في التّيجانِ

شَربتْ بالأعجازِ حتى تـروَّت وتراءت بزينـــةِ الرَّحمان

طلعَ الطَّلعُ في الجماجم منها كأكفّ خرجـــنَ من أردانِ

فتراها كأنها كُمتُ الخيـــلِ توافـــت مصـــرةَ الآذان

أهو الطّلع أم سلاسل عـــاج حملت في سفائن العقيـــان

ثمّ عادت شبـــائهاً تتباهى بأعلى شبائـــه أقـــران

خرزات من الزّبرجـــد خضر وهبتها السّلوك للقضبـــان

ثمّ حال النّجار واختلف الشّكل فلاحت بجوهـــر ألـــوان

بين صفر فواقـــع تتباهـــى في شماريخها وحمر قواني

تتابعت الصور الحسية عند الشاعر أبي هلال العسكري فقد جعل من التشبيه وسيلته لإظهار معانيه فشبَّه النخل في وقوفه منتصباً بملوك الحبش في العزة والكبرياء، ثم ينتقل ليُشبه طلوع الطلع من كافوره بطلوع الأكف من الأردان، وهذا الطلع الذي يعلوها بلونه هذا يجعلها تشبه كمت الخيل التي رفعت آذانها عندما تَجِدُّ في سيرها، ثمَّ يقف حائراً متسائلاً مشككاً فيما يرى من طلع ناصع البياض هل طلع أو سلاسل من عاج ثم يأتي بتشبيهات متنوعة حسب تدرج ثمار النخلة في النضج، واختلاف ألوانها من مرحلة إلى أخرى حتى تصير مشبهةً خرزات من زبرجد صفراء فواقع وحمر قوانٍ. ولم يغفل الشاعر البديع فقد زيَّن ببعضٍ منه صوره إذ جانس بجناس غير تام بين الفعلين (تروت وتراءت) وبين الفعل والاسم (طَلَع والطَّلْع). كما كان لحضور اللون أثره القوي في وضوح المعنى.

ومن الشعراء الذين اهتمّوا كذلك برائحة الطلع العطرة - ابن وكيع - فشبهه في إخراجهم له بدرج من الصندل عليه الكافور فقال - من السريع (أبو هلال العسكري: ب.ت،ج2، 124):

طَلْعٌ هتكنا عنـه أستـاره من بعد ما قد كان مستورا

كأنّه لمّا بدا ضاحـــكاً في العين تشبيهاً وتقديـرا

درج من الصّندل قد أودعت فيه يد العطّار كافـــورا

زاوج الشاعر في صورته التشبيهية للطلع بين الصورة اللمسية والبصرية والشمية، ولتأكيد المعنى لجأ إلى استخدام المجاز وأتى بالاستعارة المكنية في قوله: (لما بدا ضاحكاً) فقد شبه الطلع بإنسان ثم حذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو

(الضحك)؛ واستكمالاً منه لترسيخ الصورة في الأذهان اختار من البديع الجناس غير التام بين كلمتي (أستاره ومستورا). فالملاحظ من الشواهد السابقة أنَّ الطَّلع قد نال حظاً كبيراً لدى هؤلاء الشعراء فشبهوه بسلاسل من اللجين وأخرى من العاج وبسفط من اللؤلؤ المنظوم والزبرجد وغيرها من التشبيهات وجذبتهم كذلك رائحته العطرة فكأنه العبير والصندل والكافور.

وبحسب معيشة الشعراء بالقرب من النخيل ومعاينتهم المتكررة له فقد استغلوا تدرج إثمار النخيل من طورٍ إلى آخر حتى نضجه في صياغة أمثالهم اليومية (الميداني: ب.ت، ج2، 311) ومن ذلك ما قاله أبوبكر الصنوبري معبِّراً خلف الوعد – من المنسرح (الصنوبري: 1998م، 402):

قال لنـــا نخلـةٌ وقـد طَلَعَتْ نخلتُنا فاصْطبر لطَلْعَتِها

حتَّى إذا صـــار طلعُها بَلَحاً قال توقَّـع بلوغ بُسْرتِها

حتَّى إذا بُسْـرها غدا رُطَبـاً فازوا بأعذاقها برمتـها

عدِمتـها نخلـةً كنخلة عـر قوبٍ ومن قصةٍ كقصتها

إذن من الشواهد التي ذكرت آنفاً للنخل يُلاحظ أنها نالت مكانة عظيمة عندهم، فاهتموا بها، وأبرزوا قيمتها بوصفهم لها في بيئاتها وألوانها المختلفة، ومراحل إثمارها، ومقاومتها للجدب والجفاف وغير ذلك.

٣. النَّارِنج:

"شَجَرَة مثمرة من الفصيلة السَّذابية دائمة الخضرة تسمو بضعَة أمتار أوراقها جلديّة خضر لامعة لَهَا رَائِحَة عطريّة وأزهارها بيض عبقة الرَّائِحَة تظهر فِي الرّبيع وَالثَّمَرَة لبيّة تعرف كَذَلِك بالنَّارنج صارتها حمضيّة مرّة وتستعمل أزهارها فِي صنع مَاء الزَّهر وَفِي زَيْت طيار يسْتَعْمل فِي العطور وقشرة الثَّمَرَة تسْتَعْمل دَوَاء أَو فِي عمل المربيات" (إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار: ب.ت، ج2، 912).

ومن أحسن ما قيل في وصف النَّارنجِ قول ابن وكيع يدعو إلى تأملها وهي في أغصانها مشبهاً لها بدبابيس من ذهب - من المتقارب (ابن ظافر: ب.ت، 103):

ألا اسقني الرَّاحَ في جنّةٍ طرائفُ أثمارها تزهـرُ

كأنَّ تماثيـــلَ نارنجها إذا ما تأملـهُ المبصـرُ

دبابيسُ من ذهبٍ زانـها مقابضُ كيمختها أخضرُ

وفي لوحة شعرية أخرى يلفت النظر إلى النارنج مستخدماً أسلوب الخطاب ويأتي بتشبيه الجمع فقد أضاف إلى تشبيهه السابق له بالذهب تشبيهاً آخر، فهو مثل كرات من عقيق أحمر، في قوله - من الرَّجز (النّويري: 1423هـ، ج11، 116):

انظر إلى النّارنج في بهجاته يلوح في أفنان هاتيك الشّجر

مثل دبابيس نضار أحمـــر أو كعقيق خرطت منه أكـر

ومزج الصاحب بن عباد في تشبيهه للنارنج صورتين بصرية وشمية؛ مشبهاً شكله الجميل بكرات من الذهب الخالص ورائحته برائحة المسك - من الطويل (ابن ظافر: ب.ت، 103):

بعثنا من النارنجِ ما طابَ عرفهُ ونمتْ على الأغصانِ منه نوافجُ

كراتٌ من العقيانِ أحكمَ خرطُها وأيدي النَّدامى حولهنَّ صوالجُ

وقريب من المعنى السابق قول كشاجم وقد اتخذ من تشبيه التمثيل وسيلته لتقريب صورة النارنج إلى الأذهان، فالنارنج على أغصانه بأوراقه الخضر يشبه أنجماً من ذهب تتلألأ على زمرد فوجه الشبه صورة شيء أصفر يتلألأ في مستطيل أخضر، واستكمل الشاعر صورته البصرية هذه بصورة شمية فرائحته العطرة تفوح منه كرائحة المسك - من السَّريع (كشاجم: 1417هـ-1997م، 192):

كأنَّما النارنجُ لمَّا بدتْ أغصانُهُ في الوَرَقِ الخُضْرِ

زُمُرُّدٌ أبدَى لنا أنْجُمَاً مَعجُونَةً من خالصِ التِّبْرِ

إذَا تَحَيَّينا بِهِ خِلْتَنَا نَسْتنشقُ المِسْكَ من الخمرِ

اهتمَّ أبو هلال العسكري بوصف لون النَّارنج الأحمر فشبهه بالعقيق، ولإبراز هذا المعنى لجأ إلى الصورة الاستعارية، فقد شبه النارنج بإنسان وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (التبسم) في قوله - من الكامل (أبو هلال العسكري: ب.ت، ج2،38):

روضٌ زهاهُ المزنُ في كراتهِ بمكفرٍ ومزعفـرٍ ومُضـــرَّجِ

فتبسّم النارنجُ في شجراتــهِ مثلَ العقيقِ يلوحُ في الفيروزج

وتارة أخرى يصف النارنج الأصفر، ويشبه صفرته بصفرة خدود العذارى، ومزج هذه الصورة البصرية بصورة شمية؛ فالشاعر يتحدث عن الأثر النفسي الذي تركه النارنج ذو الرائحة الطيبة العطرة في نفوس المحبين وذلك في قوله - من الطَّويل (أبو هلال العسكري: ب.ت، ج2،32):

تطالعنا بين الغصونِ كأنَّها خدودُ عذارى في ملاحفها الخضـرِ

أتت كلَّ مشتاقٍ بريّا حبيبـهِ فهاجت لهُ الأحزان من حيثُ لا يدري

واستتمَّ السّريّ الرّفّاء للنَّارنج وصفاً بديعاً في صورة تشخيصية مزج بينها وبين فتاة حسناء تتبَّع فيه محاسنها وعدّ ذلك فتنة في قوله - من الكامل (السري الرفاء: 1996م، 237-238):

وبديعة أضحى الجمال شعارها صبغ الحياء رداءها وإزارها

حلّت نسيم عقالها وتوشّحـت بالأرجوان وشدَّدت أزرارهـا

فالعين تَحْسِر إن رأت إشراقها والنَّفس تنعم إن بلت أخبارها

فكأنّها في الكفّ وجنة عاشق عبث الحياء بها فأضرم نارها

محمولة حملت عجاجة عنبر فإذا سرى ركب النّسيم أثارها

أمنت على أسرارها ريح الصّبا وهناً فضيّعت الصّبا أسرارها

وكأنّما صافحت منها جمـرة أمنت يمينك حرّها وشرارهـا

ما أحسب النّارنج إلّا فتنـة هتك الزّمان لناظر أستـارها

عشقت محاسنه العيون فلو رنت أبداً إليه ما قضت أوطـارها

تتابع الصور الحسية في هذه الأبيات الرائعة ثم تمتزج مع بعضها من بصرية وشمية ولمسية فالسري عمد إلى الصور الاستعارية في وصفه للنارنج فجاءت صوره غاية في الروعة إذ جعل من الحياء إنساناً عبث بها مما أشعل نارها، وجعل للنسيم ركب يسري ليثيرها، ولريح الصبا أمانة، وللعين عشق، ووصف تأثير النارنج على كلٍّ من العين والنفس والكف.

وصف أبو الفتح البستي النارنج في بعض أشعاره وشبهه بالنار لحمرته وتوهجه، وبالرغم من أنها صورة مكررة لكن لتلاعب الشاعر بالألفاظ وقدرته على تزيين أشعاره باستخدامه للجناس بين الاسم والفعل (الجاني وجنى) أن جعل منها صورة بديعة وذلك في قوله-من السريع (أبوالفتح البستي: ب.ت، 203):

إن فاتنا الورد زماناً فقد عوَّضنا البستان نارنجنا

يحسه الجاني إذا ما بدا في كفه النارنج ناراً جنى

ومثله قوله في أبيات أخرى- من السريع (أبوالفتح البستي: ب.ت، 207):

قل للذي أبدع في الشعر: صف بستاننا هذا، ونارنجنا

فقال لي: بستانكم جنة ومن جنى النارنج، ناراً جنى

فقد أضفى الجناس كذلك جمالا في وصفه للنارنج بين الاسم والفعل (جنة-جنى).

وعموماً فقد وصف النارنج بأوصافٍ عدة منها: خدود العذارى، دبابيس من نضار أو ذهب، أكر من عقيق، كرات من ذهب، الجمر وبالنار. أما رائحته فشُبهت برائحة المسك، والعنبر.

٤. البطيخ:

"بِطِّيخ [جمع]: مفردها بِطِّيخة: نبات عُشْبيّ حوليّ مُتمدِّد من الفصيلة القَرْعيّة، ثمرته كبيرة كرويَّة أو مستطيلة، وقشرته خضراء أو صفراء، حُلْو المذاق، له أسماء متعدِّدة تختلف من بلد إلى آخر ويدعى (البطِّيخ) بمصر وجنوبيّ الشام، و(الجَبَس) في شماليّ الشَّام، و (الرَّقيّ) في العراق والبطيخ نوعان: برّيّ وبستانيّ؛ فالبرّيّ، هو الحنظل، ومنه ذكر ومنه أنثى؛ فالذّكر ليفيّ، والأنثى رخو أبيض سلس؛ والمختار منه الأبيض الشَّديد البياض اللّيّن، فإنّ الأسود منه رديء، والصّلب رديء؛ وأما البستانيّ: فهو ثلاثة أصناف: هنديّ وصينيّ وخراسانيّ" (عبد الحميد:1429هـ- 2008م، 216).

البطيخ عند كشاجم طعمه طعم الشَّهد ورائحته رائحة العنبر في قوله - من الرجز (كشاجم:1417هـ-1997م، 185):

وزائرٍ زار وقد تعطّرا أسرّ شهداً وأذاع عنبرا

واستكثرت منه اللهاة سُكّراً ينفث في الأنف مِسكا أذْفَرا

مُلْتحِفاً للحرّ ثوباً أصفرا مُعَمّدا من الحرير أخضرا

يظُنُّه النَّاظرُ إن تقرّرا دبَّ الدّبى بمتنه فأثّرا

فالشاعر رسم صورة زاهية للبطيخ؛ حيث مزج فيها صوراً مختلفة من شميّة وذوقية وبصرية؛ فرائحته عطرة، وطعمه حلو، وقشرته صفراء، ومما زاد الصورة جمالاً استعماله للمجاز حيث أتى بالاستعارة المكنية مشبهاً البطيخ بزائر حلَّ عليهم، فحذف المشبه به ورمز إليه بقوله: (زائر زار)، (وملتحفاً ثوباً) ولا يخفى ما أضافه البديع من جمال في طباق الإيجاب في الفعلين (أسرَّ وأذاع) وكذلك الجناس بين الكلمتين: (دبّ والدبي) وكل ذلك يبين الأثر الطيب الذي تركه البطيخ في نفس الشاعر.

ولم يكتف كشاجم بوصف البطيخ فقط وإنما خاطب - في موضعٍ آخر - جانيه كأنَّه يلفته إلى قيمة البطيخ وإلى ما امتاز به من الرَّوائح الذَّكية التي تفوق رائحة النَّدِّ مع اختلافٍ واضحٍ بين ظاهره الخشن وباطنه النَّاعم وقد أضفت هذه (المقابلة) وهذا المزج بين الصور الشميَّة واللّمسية والذوقية جمالاً أخّاذاً في قوله - من السَّريع (النَّويري: 1423هـ، ج11، 36):

يا جاني البطّيخ من غرسه جنيت منه ثمـر الحمد

لم يأتنا حتّى أتتنـا لـه روائـح أذكى من النّـدّ

بظاهر أخشن من قنفـذ وباطـن أنعم من زبـد

كأنّما تكشف منه المـدى عن زعفران شيب بالشّهد

ومن إعجاب الشاعر المأمونّ بالبطيخ وحبِّه له أن نظم كذلك في الأصفر منه (الصِّيني) فوصف صفرتها ورائحتها العطرة، وطعمها اللَّذيذ، فهي بدرٌ وإذا ما قُطعت صارت أهلة بقوله - من الطَّويل (النَّويري: 1423هـ، ج11، 33-34):

وبطّيخـة مسكيّـة عسليّـة لها ثوب ديباج وعرف مـدام

محقّقـة مـلء الأكفّ كأنّهـا من الجزع كبرى لم ترض بنظام

لها حلّة من جلّنـار وسوسـن معمّدة بالآس غـبّ غمـام

تمازج فيها لون حبّ وعاشـق كساه الهوى والبين لون سقـام

وأبدى لنا التَّحزيز تخضيب كاعب غلاميّة ذات اعتـدال قـوام

إذا فصّلـت للأكل كانت أهلّـة وإن لم تفصّل فهي بدر تمـام

تتابعت الصور التشبيهية عند المأموني فمزج بينها مزجاً ينم عن خبرة ودراية في تشكيل الصورة الحسية فاجتمعت عنده شمية وذوقية وبصرية، ولم يغفل دور الكناية في صوره لأن لها من القوة والتأكيد ما ليس في التعبير عنه باللفظ الموضوع له فكنّى لصفرة البطيخ بـ (لون سقام).

وله أيضاً في البطيخ الأخضر (الهندي) قوله - من الطَّويل (النَّويري: 1423هـ، ج11، 32):

ومبيضّة فيها طرائق خضرة كما اخضرّ مجرى السَّيل من صيّب المزن

كحقّة عاج ضبّبت بزبرجـد حوت قطع الياقوت في عُطْب القطـن

أكد الشاعر براعته وقدرته في توظيف تشبيهاته العميقة لتأكيد المعنى، فشبه الخضرة التي على بياضها بالخضرة التي تتشكل على مجرى السيل، ثم استعان بتشبيه التمثيل ليخدم غرضه في توضيح المعنى فشبهها بحقة من عاج ألبست زبرجداً بداخلها قطع صغيرة لياقوت أحمر. فهي صورة منتزعة من متعدد، صورة شيء أبيض عليه خطوط خضراء حوى شيئاً أحمر.

ولا يبعد من المعنى السَّابق قول أبي هلال العسكريّ - من الوافر (أبو هلال العسكري: ب.ت، ج2،42):

وجامعة لأصناف المعاني صلحنَ لوقتِ إكثارٍ وقلّه

وإحداهنّ تبرزُ في عِبـاء وأُخراهنّ في حِبَرٍ وحُلَّـه

ومنها ما تشبَّهُ بُـدُوراً فإنْ قطّعتها رجعت أهلّه

وفي لوحة شعريةٍ أخرى لأبي هلال العسكري يحضر اللون بقوة؛ فيبين أنَّ اللَّون الواحد من (بذور البطيخ) ينتج بطيخاً بألوان مختلفة منها: الأسمر، الأسود، الأحمر والأصفر، فقال - من الهزج (أبو هلال العسكري: ب.ت، ج2،42):

ولونٍ واحد يلقـــى فيأتينـــا بألـــوان

بسمرانٍ وســـودانٍ وحمرانٍ وصُفـــران

كوشي في يديْ واشٍ وشهدٍ في يَديْ جاني

فمن أدم ومن بقـلٍ وريحانٍ وأشنـــانِ

فالبطيخ نال حظوة كبيرة عند هؤلاء الشعراء فوصفوه بألوانه المختلفة وبأنواعه: (الهندي، الصيني، والخراساني)، ووصفوا طعمه: (بالشهد والسكر)، ورائحته: (بالمسك والعنبر والند).

٥. الكمثرى:

"كُمَّثْرَى [جمع]: مفردها كُمَّثْراة: شجر مُثْمِرٌ من الفَصيلة الورديَّة، أصنافه كثيرة، ويسمّى في بعض البلدان الإجّاص، وتُطلق الكلمة أيضاً على ثمر ذلك الشّجر ويكثر شجر الكُمَّثرى في بلاد الشَّام" (عبد الحميد:1429هـ- 2008م، ج3، 1957).

وصف كشاجم الكمثرى في أوان نضجها وقد تزيّنت بألوان الجواهر من حمراء وصفراء، وقد أحضرها حارس البستان الّذي قام بخدمتها حتى جاءت على هذه الهيأة الحسنة سواءً في أغصانها أو في الطّبق الّذي أضافهم به في قوله - من الرَّجز (النّويري: 1423هـ، ج11، 174):

أحْضَرَنـا النّاطـــورُ من بستانه في طبقٍ ينطق عن إحسانِهِ

لونـاً من الرَّائـــع في أوانـــه أهدى له الجوهرُ من ألوانِـهِ

ما احمرّ أو ما اصفرّ من مرجانه مثل نزول الجيش في ميدانه

مذهبـةٌ في الهـام من فرسانـه شَيْبَ بريقِ الشّهد في أغصانه

أنورُ في النَّاظر من إنسانه

أكَّد الشاعر من خلال هذه الأبيات السابقة اهتمامهم ببساتين الفواكه وأنَّ عليها حرّاساً يقومون برعايتها، كما لفت النظر أيضاً إلى أهمية تناول الفاكهة في إبانها بقوله: (من الرائع في أوانه).

وَحدد أبو طالب المأموني الفصل الذي تنضج فيه الكمثرى في صورة من صور تشبيه التمثيل قوله- من الوافر (الثعالبي:1403هـ-1983م، ج4، 206):

وَضرب من ثمار الصَّيف يَحْكِي وَقد طلعت لنا مِنْهُ نُجُوم

قناديـلاً تضـيء لَهَـا رُءُوس مثقبة وَلَيْسَ لَهَا جـروم

ومن وصف أحمد بن فرج للكمثرى قوله - من مجزوء الكامل (الكتاني: 1981م، 88):

جنيت من القضب النَّواضر فأتتك كالغيـد العواطـر

يلبسن من بـــرد النَّعيـ م ملابساً غضَّ المكاسـر

ما بين مخضـــر الرُّبـى وبين مصفـر الأزاهـر

وكأنَّ أصغـــرها دقـــا ق كواكبٍ في عين ناظر

أو مثــل صفــراء المدا مــة في أكياس أصاغــر

متنفســاتٍ في الأنـــو ف بمثل أنفاس المجامــر

حلــو ضمائــرها كمــا يحلو الهوى لك في الضَّمائر

أو مثلما تحلــو القــوا في من لسانٍ فيك شاكــر

وكأنَّمــا هي منـــك في حسن المخابر والمناظــر

وكأنَّــها من شكرهـــا تملا البطون إلى الحناجــر

اتخذ الشاعر من التشبيه وسيلة لإبراز معانيه، وكان دقيقاً في ذلك فأحسن فيه الربط وعقد الصلة بين الأشياء فجاءت معانيه على أحسن وجه. فهو يشبه الكمثرى بالغيد العواطر المنعمات تارة ويشبهها بدقاق الكواكب تارة أخرى ومرة ثالثة بالمدامة الصفراء في أكياس أصاغر، ورائحتها عطرة وطعمها حلو فتجلت صوره الحسية من بصرية وذوقية وشمية، وأضفى لها من الجناس غير التام ما زيّن به ألفاظه فجعلها قريبة من النفس: بين الكلمات (النواضر والعواطر)، (المخابر والمناظر)، كما أبدع الشاعر في إخضاع الصورة اللونية لإبراز المعنى مدركاً أن الألوان لها تأثير في حركة المشاعر الإنسانية.

٦. العنب:

"عِنَب [جمع]: جمع الجمع أعناب، عِنَبَة: ثمرُ الكَرْم، وهو نبات مُعَمَّر متسلِّق ثمرُه صغير حلوّ طريّ، فإذا جُفِّف صار زبيبًا" (عبد الحميد:1429هـ- 2008م، ج1560،2). وفي القرآن الكريم قوله تعالى:ﷺواضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا (سورة الكهف، اية: 32. وقيل: أجود العنب ما غلظ أعمده وأخضر عوده وسبط عنقوده" (الرَّاغب الأصفهاني:1420هـ، ج1، 71).

عناية الشُّعراء بالعنب، واهتمامهم به، ووصفهم له؛ جعلهم يصفون أيضاً مصدره، فانطلقوا بما أُتوا من خيال خصب، وملكات بلاغية أن يرسموا لوحات جميلة يصفون فيها أشجار الكروم. فالسَّري الرَّفَّاء وصف أشجار الكرم المتشابكة في بستان ممدوحه، وأوراقها المخضرّة وهي تنسدل على ذلك الكرم ذي اللونين الأسود والأصفر واستكمل لوحته بما رآه أمامه من جداول الماء المتعرِّجة هنا وهناك فقال- من البسيط (السري الرفاء:1996م،58):

والكَرْمُ مشْتَبِكُ الأفنانِ، تُوسِعُنَا أجناسُه في تساوي شِرْبِها عَجَبَـا

فكرمةٌ قَطَرَتْ أغصانُها سَبَجَاً، وكرمةٌ قطرتْ أغصانُها ذَهَبـــا

كأنَّما الوَرَقُ المُخْضَرُّ دونهمـا غيرانُ، يكسوهما من سُنْدسٍ حُجُبَا

والماء مطَّرِدٌ فيه ومنعـــرجٌ كأنَّما مُلئـت حياتـــه رُعُبـــا

فقد شبَّه العنب الأسود بالسَّبَج، والعنب الأصفر بالذهب في تشبيه بليغ استعان به ليأتي بصورة رائعة تأخذ بالألباب. واستتمَّ هذه الصورة الخلابة بصورة استعارية إذ جعل من أوراق الكروم الناعمة إنساناً يحميها ويغار عليها فيحجبها عن أعين الناظرين لتلتذَّ به وحدها، ويُشارك الماء المنظر الحسن فهو يجري هنا وهناك ويتعرَّج في جريانه كأنه يتخفّى في فزع. وما يلفت الانتباه هنا هذه الألوان التي ازدانت بها هذه اللوحة من أسود وأصفر وأخضر وأبيض.

كان للعنب الأسود مكانةً خاصةً في نفوسهم، فقد قال عبد المحسن الصّوريّ يصف عنباً أسودَ أُهدى إليه وهو مغطّى بورقه - من الخفيف (النّويري: 1423هـ، ج11، 151):

جاءنا منك تحفة نحن منـها أبداً في تَضاعُفِ السّرّاءِ

عنبٌ أســـودٌ كأنّ عليــه حُللاً من حنادس الظّلماءِ

خلتُه في خلال أوراقه الخُضـ ـر ولون اسودادِهِ والصّفاء

كقُمُوعٍ على أنامِل خـَــودٍ لُحْنَ من كُمّ لاذةٍ خضراءِ

لجأ الشاعر إلى تشبيه التمثيل؛ ليبرز صورة العنب الأسود وقد وضع بعناية فائقة على الإناء الذي أهدي فيه، وهو مغطى بأوراقه الخضراء، وشبهه بقموعٍ على أنامل فتاةٍ حسناء قد لحن من كمّ ثوبٍ من حرير أخضر. صورة شيء أسود صافٍ يبدو على شيء أخضر في صورة منتزعة من متعدد.

شبّه الصَّاحب بن عبَّاد حبة عنب – قطفها - بلؤلؤة في قوله - من الرَّجز (الصاحب بن عباد:1422هـ- 2001م، 122):

وحبَّةٍ من عنبٍ قطفتُهـا تَحسِدُها العقودُ في التَّرائبِ

كأنَّها من بعدِ تمييزي لها لؤلؤةٌ قد ثُقِبَتْ من جانــبِ

ومما زاد الصورة جمالاً مجيئه بالاستعارة المكنية، فقد شبه العقود بالناس الذين يحسدون ما تمتع به غيرهم من هبات، وحُسدت العنبة هنا لأن جمالها فاق جمال العقود التي على النحور، فحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو قوله (تحسدها).

هناك ضرب من العنب يقال له الكشمش " صغير الحَبِّ لا نوى له. ثماره كرويّة الشَّكل بيض أو حُمر أو سُود، لذيذة الطَّعم تُصنع منها مُربَّيات، والزَّبيب منه يدخل في كثير من الأطعمة" (عبد الحميد:1429هـ- 2008، ج1939،3). شبهه أبو طالب المأموني بعدة تشبيهات متتابعة في قوله - من الرَّجز (الرَّاغب الأصفهاني. 1420هـ، ج1، 719):

وكشمش كخــرز للنَّظـم لم يثقـــب

تتلى بها الكاس لما بينهمـا من نســب

كأنّــه أوعيـــة يحملن ذوب الضّرب

أو لؤلؤ حلّي أعـ ـلاه بمـاء الذّهــب

ولا شك أن هذه الصورة التشبيهية تتسم بالحسية فشبهه بالخرز، وبأوعيةٍ يُحمل عليها عسل الضَّرب ثمَّ باللؤلؤ.

وهكذا فقد لقي العنب عند هؤلاء الشعراء اهتماماً كبيراً لما تمتع به من ميزات. وكما قيل: "كان الأحرى بهذا العنب أن يُناط بالنحور أو تُزين به الصدور فما هو إلا اللؤلؤ لكنه سليم من سجن البحار، وما هو إلا الدُّرُّ لكن ليس فيه صُغار" (الهاشمي:1436هـ- 2015م، 146).

٧. السَّفرجل:

هو "شجر مثمر من الفصيلة الورديّة، والجمع سفارج" (إبراهيم مصطفى وآخرون: ب.ت، ج1، ص433). ومن أحسن ما قيل في السَّفرجلِ، قول السّريّ الرّفّاء يصف منظره الحسن ورائحته الطَّيبة ومذاقه اللذيذ وأنَّه يشابه المحبوب في الحسن وطيب المذاق - من الكامل (النويري. 1423هـ، ج11، 169):

لك في السَّفرجل منظر تحظى به وتفوز منـه بشمّـه ومذاقــه

هو كالحبيب سعدت منه بحسنه متأمّـلاً وبلثمـه وعناقـــه

يحكى لك الذّهب المصفّى لونه وتزيد بهجتــه على إشراقــه

فالشّكل من أعلاه يحكى شكلـه ثدي الكعاب الى مدار نطاقه

والشّكل من سفلاه يحكى ســرّة من شادن يزهى على عشّاقـه

استدعى الشاعر للسفرجل في هذه الأبيات صوراً حسية مختلفة: بصرية وشميَّة وذوقية مشبهاً له بالحبيب الذي يُسعد حِبّه –حسناً ولثماً وعناقاً - ثم ينتقل ليشبهه في صفرته بلون الذهب المصفّى الخالص ثم أتى له بتشبيهين آخرين في جسمٍ واحد: فهو من أعلاه يشبه ثدي الكعاب ومن أسفله سرة شادن.

وصف جعفر المصحفي سفرجلة بأنها جمعت أوصاف المحبين؛ فمن الحبيب صفرة السُّقم، ومن محبوبه: الرَّائحة العطرة، نعومة الجسم، ونضارة الشَّباب فوجد في هذه السَّفرجلة تسليةً ليضمّن الأبيات ما يُعانيه من صدِّ المحبوب وقسوة قلبه فقال - من الطَّويل (التّلمساني: 1900، ج1، 594):

ومُصفَرَّةٍ تَختَالُ في ثَوبِ نَرجسٍ وتَعبَقُ عن مِسك ذكيّ التَّنــفُّسِ

لها ريحُ مَحبوبٍ وقَسوةُ قَلبِــهِ ولَونُ محبٍّ حُلَّةَ السُّقمِ مُكتسـي

فصُفرَتُها من صُفرتي مستعــارةٌ وأنفَاسُها في الطّيبِ أنفاسُ مُؤنسي

وكان لها ثوبٌ من الزُّغب أغبــرُ على جِسم مصفرٍّ من التّبرِ أملّسِ

فلمّا استتمَّت في القَضيبِ شبَابـها وحاكَت لها الأوراقُ أثوابَ سُندُسِ

مَدَدتُ يدي باللّطف أبغي اجتناءها لأجعلها رَيحانتي وَســطَ مَجلسي

فَبزَّت يدي غَصباً ثَوبَ جِسمِــهَا وأعريتُها باللّطفِ مِن كُلِّ مَلبَــسِ

ولمّا تعرَّتْ في يدي مـن بُرُودِها ولم تبقَ إلاّ في غلالةِ نرجـــسِ

ذكرتُ بها من لا أبـوحُ بذِكــرِهِ فأذْبَلها في اللّطـفِّ حـرُّ التَّنفُّسِ

استعار الشاعر للسفرجلة بحسناء تتبختر في ثوبٍ ناعمٍ من النرجس تعبق منها رائحة المسك، ثم حشد الاستعارات من مثل: استتمت شبابها، وحاكت لها الأوراق أثواب سندس، وتعرَّت في يدي ولم تبق إلا في غلالة نرجس، كل هذه الصور الاستعارية التي رسمها الشاعر للسفرجلة جعل منها صورةً حيَّةً مفعمة بالنشاط والحيوية؛ ليفصح عن شعوره النفسي فوجد في هذه السفرجلة تسليةً فضمَّن الأبيات ما يُعانيه من صدِّ المحبوب وقسوة قلبه.

وعلى كلٍّ فقد أبان الشعراء من خلال نظمهم أن السفرجل شارك بعض الفواكه كالتفاح مثلاً في الطعم الحلو والمنظر الحسن والرائحة الطيبة.

٨. النَّبْق:

"ثَمَرَة السِّدر وهي شجرة من الفصيلة السِّدرية قَليلَة الِارْتفَاع أَغْصَانهَا ملس بيض اللَّوْن تحمل أوراقاً متبادلة ملساً وأزهارها صَغِيرَة متجمعة إبطية وثمرتها حسلة حلوة تُؤْكَل" (إبراهيم مصطفى وآخرون: ب.ت، ج2، 898).

قال أبو الفرج الببغاء يصف النَّبق وقد جمع في وصفه صورة بصرية وأخرى شمية وثالثة ذوقية فمنظره جميل ورائحته عطرة وطعمه حلو - من الرَّجز (النّويري: 1423هـ، ج11، 145):

انظر إلى النّبق البديع المنظر الطّيّب الرّيح اللّذيذ المخبر

أحلى مذاقا من مذاق السّكّر كخرز من كهرباء أصفر

كان أبو هلال العسكري معجباً بألوان النبق الصَّفراء والحمراء وبمذاقه اللذيذ فلم يتوقف في تشبيهه على شيءٍ واحد بل تنقل من الجواهر إلى العقيق فالنضار ثم الشهد والراح- من المجتث (أبو هلال العسكري: ب.ت، ج2، 44):

جلى الرَّبيـعُ علينـا كواعباً أبكـاراً

مُتوَّجـات عقيقـاً مسوَّرات نهـارا

ترى لهنَّ من الـورد شوذراً وخِمـارا

أهدى لنا جوهـراتٍ تحيرُ الأبصارا

يا حسنَ حمرٍ وصفرٍ تريك جمراً ونارا

قد راقَ ذاك احمراراً وراع ذاك اصفرارا

وخلتُ هذا عقيقـاً وخلتُ ذاك نُضارا

وذاك شهداً مشـاراً وذاك راحاً عُقارا

لو كان يبقى سليماً نظمتُه تِقصـارا

أكّد الشاعر ببراعته وحسن اختياره لتشبيهاته الرقيقة والعميقة على توظيف التشبيه ليبين المعنى الذي أراده الشاعر، وكان لحضور اللون أثره في تجلي المعنى مما جعل منها لوحة زاهية.

شبه كشاجم النبق ببنادق من ذهب وقد أبدع في توظيف الحركة داخل الصورة (صخب الطير، حركة الرياح، زعزعت الشعب) - من الرجز (ابن ظافر: ب.ت، 119):

وظل سدرٍ مثمرٍ وافي الهدبْ فيه لأنواع من الطيرِ صخبْ

إذا الرياحُ زعزعتْ منه الشعبْ أبدى لنا بنادقاً من الذهـبْ

٩. التُّفاح:

"التُّفاح ثمر من الفصيلة الورديّة له ضروب كثيرة واحدته تفاحة" (إبراهيم مصطفى وآخرون: ب.ت، 85).

ذهب ابن الأثير إلى وصف التفاح بقوله: "هو الّذي رقّ جلده، وعظم قدّه، وتورّد خدّه، وطابت أنفاسه فلا بان الوادي ولا رنده، وإذا نظر إليه وجد منه حظّ الشَّم والنَّظر، ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته إلى منابت الشجر".

وارتبط التُّفاح بالخمر لأن الكثير منها كان يُصنع من التفاح آنذاك وفي هذا قال السَّرِي - من المنسرح (السري الرفاء: 1996م، 124):

لو جَمدت راحُنا غدت ذهباً أو ذابَ تفَّاحُنا اغتدى راحا

والشاعر في هذا البيت يُشير إلى استخدام التفاح جامداً وذائبا، ولتّضح الصورة أكثر استعان بطباق الإيجاب بين الفعلين (جمدت وذاب).

وبلغ من حُبِّ وإعجاب أبي هلال العسكري بالتُّفاح أن قرَّبه منه بل اتَّخذه حبيباً لروحه فقال –

من الخفيف (أبو هلال العسكري: ب.ت، ج2، ص32):

ليسَ ريحُ التفاحِ عندي بريحٍ لا ولكنهُ صَديقٌ لروحي

حمرةُ الخدَ واخضرارُ عـذارِ فمليحٌ يطوفُ حَولَ مليحِ

ومن تشبيه التُّفاح بالخدود أيضاً قول الصَّاحب بن عبَّاد - من الطَّويل (ابن ظافر: ب.ت، 106):

ولما بدا التُّفاحُ أحمرَ مشرقـاً دعوتُ بكأسي وهي ملأى من الشَّفقْ

وقلتُ لساقيها: أدرها فإنَّـها خدودُ عذارى قد جمعنْ على طبـقْ

ووصف الشاعر البستى التُّفاح بصورة حسية (بصرية وشمية وذوقية) فمنظر حسن وناضر، ورائحته عطرة ومذاق حلو. في قوله- من الطَّويل (القيرواني: ب.ت، ج4، 1082):

فتًى جمع العلياء علماً وعفّةً وبأساً وجوداً لا يفيق فواقا

كما جمع التُّفاح حسناً ونضرةً ورائحةً محبوبةً ومذاقـا

وأحسن ما قيل في وصف التُّفاح قولُ ابن دريد - من الطَّويل (النّويري: 1423هـ، ج11، 164):

وتفاحةٍ من سوسنٍ صيغَ نصفُها ومن جلنارٍ نصفها أو شقائقِ

كأنَّ النَّوى قد ضمَّ من بعد فرقةٍ بها خدّ معشوقٍ إلى خدِّ عاشقِ

فهذه صورة بديعة رسمها ابن دريد لتفاحة ذات لونين (أصفر وأحمر) أشار إليهما في البيت الأول بالسوسن والجلنار، وفي البيت الثاني بخدي محبوبين التقيا بعد فرقة، فتمعن كيف استطاع الشاعر بدقة تصويره أن يؤدي جمال المعنى.

غلب على الشعراء في وصفهم للتَّفاح بأنه أحمر وأنه في الصفرة يُشبه خدَّ المحبوب وتكاد تكون صورةً متكررةً عندهم، مع أنه يتصف كذلك بألوانٍ أخرى فقد قيل فيه: "أحسن الفاكهة التفاح، اجتمع فيه الصفرة الدّرّية، والحمرة الخمرية، والشّقرة الذهبية، وبياض الفضة، ولون التبر؛ يلذ بها من الحواس: العين ببهجتها، والأنف بريحها، والفم بطعمها" (ابن عبد ربه: 1404هـ، ج7، 317).

١٠. التِّين:

"شجر من الفصيلة التّوتيَّة، وتُطلق الكلمة أيضاً على ثمر هذا الشّجر" (عبد الحميد: 1429هـ-2008م. ج1، 307). و"يؤكل رطباً ويابساً، الواحدة تينة" (الجوهري:1407هـ- 1987، ج5، 2067). وأقسم به المولى عزَّ وجلَّ في قوله تعالى: والتين والزيتون (سورة التين، اية: 1) ومما يميّز التّين أنّ "آدم عليه السَّلام استتر بورقه إذ كشفت المعصية من ستره. وخُصَّ بطول الأعناق فما يرى بها من ميل، وقد وصف بأنه راق طعماً، ونعم جسماً" (ابن الأثير: ب.ت، ج2، ص290).

وتسابق الشُّعراء في وصفه ومن أحسن ما قيل في التِّين الأسود قولُ كشاجم - من الرَّجز (كشاجم:1417هـ-1997م، 67-68):

أمَرْجَنَـــا المَرْجِيّ أيّ مرجٍ في تينه البالغِ غيـرِ الفِجِّ

يُشْبهُ في اللَّون وطيبِ الأَرْج نوافجَ المسكِ وطَعْمَ الثَّلـجِ

مِثْلَ رُؤُوسِ العَلْفِ سُوْدِ نَسْجِ أو كثُدْايَا ناهداتِ الزِّنْـجِ

لجأ كشاجم في تصويره للتين الأسود إلى التشبيه؛ فبلونه الأسود وشكله المنتصب يشبه رؤوس العلف أو ثدايا فتيات الزنج أما رائحته العطرة فتضوع مثل نوافج المسك. ولتستتم صورته أتى في البيت الأول بالجناس كصورة من صور البديع التي لا غنىً فجانس بين الكلمتين (مَرْجَنَـــا، المَرْجِيّ) فكان له من الجمال ما تسكن إليه النفس.

كذلك من ترحيب كشاجم بالتِّين أن وصف تيناً أصفرَ وأسودَ بقوله - من مجزوء الرَّجز (كشاجم:1417هـ- 1997م، 297-298):.

أهلا بتيـــنٍ جاءنـــا مُبتسماً على طبـــقْ

يحكي الصَّباح بعضُهُ وبعضُهُ يحكي الغسقْ

كسُفْـــرةٍ مَضْمُومـــةٍ قد جمعت بلا حَلَـــقْ

قد سُرَّ الشاعر بشرائح التين المقطَّعة على السفرة وجاءت صفراء وسوداء فالصفراء شبهها بالصباح، والسوداء بالليل وجمع بين (الصباح والغسق) في صورة بديعية (طباق إيجاب). وكان لاستخدامه للاستعارة المكنية في البيت الأول أثره الجلي في وضوح الصورة؛ إذ شبه التين بإنسان ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو قوله: (مبتسماً). وقال أيضاً مخاطباً صاحبه وقد رسم لوحةً جميلة لتينٍ أصفر لذيذ الطَّعم، حسن المنظر - من الكامل (النّويري. 1423هـ، ج11، 159):

قم قد أتى ضوء الصّباحِ المُسْفِرِ يا صاح نغتنمِ الحياة وبكّـرِ

نَلْمِمْ بتينٍ لذّ طعماً واكتســـى حُسناً وقارب منظراً من مَخْبَرِ

لطُفتْ معانيه لَطافَةَ عاشـــقٍ في لون مُشتاقٍ حليفِ تفكّـرِ

فالشاعر في هذه الأبيات يستنهض صاحبه باكراً ليستمتعا سوياً بذلكم التين اللذيذ الطعم، الجميل المنظر، ولم يُصرّح بذكر لونه بل عبَّر عنه بقوله (لون مشتاق) كناية عن اللون الأصفر مما أضفى على الصورة قدراً من كبيراً من الروعة والجمال.

فمما ذكر من شواهد شعرية عن التين فقد شُبه التين الأسود بنوافج المسك، وبثدايا ناهدات الزنج، وبالغسق، والتين الأصفر بالصباح، ولون العاشق المستهام.

١١. الخوخ:

"خوْخ [جمع]: مفردها خوْخة: درّاق، شجر مثمر من الفصيلة الورديَّة من أشجار الفواكه، وتطلق الكلمة أيضاً على ثمر ذلك الشّجر" (أحمد مختار. معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة، ج1، ص705). وهي الفاكهة التي تعرف في اليمن بالفِرْسِك وفي مصر بالخُوخ بضم الخاء وفي بلاد الشام بالدُّرّاق (الحميرى: 1420هـ-1999م، ج3، 1943). وفيه "تشهية للطّعام؛ ويجب ألّا يؤكل على غيره فيفسد عليه ويفسده، بل يُقدّم على الطّعام؛ وقديده بطيء الهضم ليس بجيّد الغذاء" (النّويري. 1423هـ، ج11، 138).

قال أبو بكر الصَّنوبرىّ مصوِّراً منظر الخوخ الأقرع معجباً بنعومته، وألوانه الخلّابة - من مخلّع البسيط (أبوبكر الصنوبري:1998م، 360):

أهدى إلينا الزَّمان خوخـــاً منظرُهُ منظرٌ أنيـــقُ

من كلّ مخصوصةٍ بحسنٍ معناه في مثلها دقيق

ملساءُ مصبوغـــةٌ تولَّى صباغَها صابغٌ رفيق

صفراءُ حمراءُ مستفيـــدٌ بهجتها التّبــر والعقيق

ذات أديمين: ذا بهـــارٌ لمجتليــه، وذا شقيــق

كوجنة ألبست خلـوقـــاً فزال عن بعضها الخَلوق

فهذا الخوخ الحسن، الجميل المنظر، الأملس، قد زانه لونان أحمر وأصفر فكأنه مصبوغ بهما، فشبه الشاعر الخوخة بوجنة المحبوبة وأنكر الشاعر أن تكون صفرة التبر وحمرة العقيق أصل فيها وإنما استفادا ذلك من لون الخوخة.

وعن كبر حجم الخوخة ولونها قال أبو هلال العسكريّ - من السَّريع (أبو هلال العسكري: ب.ت، ج2، 37):

وخوخة ملء يد الجانية تملك لحظ الأعين الرّانيه

مصفرّة الوجنة محمـرّة كأنّـها عاشقة ساليــه

فقد استعان بالجناس غير التام بين (الجانية والرانية) ليظهر كبر حجم الخوخة ومدى تعلق الأنظار بها. والملاحظ في الشَّواهد الشِّعرية السَّابقة أنَّ الشُّعراء أكثروا من تشبيه الخوخة بالوجنة وقيل في ذلك: "أما الخوخ، فقد أطنبوا في وصفه، وأكثروا من مدحه، وزعموا أنه أشبه شيءٍ بالخدود من التفّاح، وأقرب شبهاً بالوَجنات المِلاح، لأنَّه يُشاركها في البَياض والسُّمرة، والأدمة والصُّفرة، والتَّورِيد والحمرة، والزَّغَب اللّين البَشَرة، وهو أطيب ملثَمٍ وأعذب مقبَّل، وأذكى مشمٍّ، وهو عند طائفةٍ من أهل الهوى أجلُّ مرتبةً من التُّفّاح لولا ما خالطه من النَّوى الّذي يشمئزّ منه الظّرفاء، ويَشناه الأدباء، وأنه مفقودٌ، والتفاح موجود" (الوشَّاء: 1371 هـ - 1953 م، 177).

١٢. الأترج:

"شجر يَعْلُو ناعم الأغصان وَالْوَرق وَالثَّمَر وثمره كاللَّيمون الكبار وهُوَ ذهبي اللَّوْن ذكي الرَّائِحَة حامض" (مصطفى وآخرون،1987م، ج1، 4). "واحدته ترنجة وأترجة" (ابن منظور:1414هـ، ج2، 218). وقد أحسن وأطرب كشاجم بقوله - من المنسرح (كشاجم.1417هـ-1997م، 324-325):

يا حبذا يَومُنا ونحنُ على رؤوسنا نعقـدُ الأكاليلا

في جنّةٍ ذُلّلَتْ لقاطِفــها قطوفُها الدانياتُ تذليـلا

كأنَ أترنجَها تميلُ بــها أغصانُها حاملاً ومحمولا

سلاسلٌ من زبرجدٍ حَمَلَتْ من ذهبٍ أحمرٍ قناديــلا

يذكر الشاعر يوماً قضاه متنزهاً –كنزهة الملوك- في بستانٍ جميل كأنه جنةٌ أتاحت لزائرها ما شاء أن يقطف من ثمارها الدانية لا سيما الأترنج فاستعان بتشبيه التمثيل مما جعل الصورة أكثر وضوحاً وأعمق فهماً؛ إذ شبه أغصان الأترنج الخضراء وهي تتمايل محملة بالأحمر منه، بسلاسل من زبرجد عليها ذهب أحمر كالقناديل. ومما زاد جمال الصورة أن الشاعر نجح في توظيف عنصر الحركة في صورته إذ جعل الأغصان في أشجارها تتمايل من هذا الحمل الكثير. ومما اهتمَّ به الشاعر كذلك البديع واختار منه الجناس في قوله (لقاطفه وقطوفها) و(حاملاً ومحمولا) فكان له.

١٣. اللَّوز:

"لَوْز: مفردها لَوْزَة: شجرٌ مثمرٌ من فصيلة الورديّات، شبيه بالمشمش، إلاّ أنّ لُبَّ ثمرته يبقى يابسًا، حبَّته مستطيلة لذيذة الطَّعم، واللَّوْز إمّا حُلْوٌ أو مُرٌّ، يبقى طويلاً ولا يفسد، تُصنع منه أصناف من الحَلْوَى، ويستخرج من ثماره زيت اللَّوز، كما يُستخرج زيت اللَّوز الطِّبّيّ من اللَّوز المُرّ، لَوْز الجنائن: تشكيلة كبيرة من اللَّوز الفاخر يستعمل في إعداد الحلويّات خاصّة" (عبد الحميد: 1429هـ - 2008م، ج3، 2047).

وصف أبو طالب المأمونيّ استتار اللَّوز اليابس في لبّه بقوله - من البسيط (النّويري: 1423هـ، ج11، 89):

ومستجنّ عن الجانين ممتنع بحلّـة لـم تحكـها كفّ نسّـاج

درّ تكوّن من عاج تضمّنـه في البرّ لا البحر أصداف من السّاج

شبه الشاعر اللوز بإنسان ثم حذفه ورمز إليه بكلمة (مستجن) على سبيل الاستعارة المكنية ولم يغفل ما للبديع من فزيَّن صورته ببعض منه، جانس بين الاسمين (مستجن والجانين) وهو جناس اشتقاق وكذلك بين الاسمين (عاج والساج) جناس غير تام. ثم استتم صورته بطابق الإيجاب بين الاسمين (البر والبحر) ضدان ذكرهما الشاعر ليكشف عن قيمة اللوز مقارناً بينه وبين الدر في البحر.

وقريب من المعنى السابق قوله يصف اللوز الرطب - من الطويل (الثعالبي: 1403هـ-1983م، ج4، 204):

وافـت لتخطر فِي ثَلَاث مـدارع حذاهن فِي شكل النواظر حادي

توابيت فِي حصر الخدود تَضَمَّنت مكفن عاج فِي مصـندل لاذي

١٤. الزيتون:

"زَيْتُون [جمع]: مفردها زيتونة: شجر زيتيّ مثمر من الفصيلة الزيتونيّة، وتُطلق الكلمة أيضاً على ثمار هذا الشّجر، وهي ثمار تؤكل بعد ملحها ويُعصر منها الزيت. وورد ذكره في القرآن الكريم كما في قوله تعالى:ﷻ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إنّ في ذلك لأية لقوم يتفكرونﷺ(سورة النحل، الاية:11) جَبَلُ الزَّيتون: جبل في القدس- غُصْن الزَّيتون: رمز للسلام" (عبد الحميد:1429هـ-2008م، ج2، 1013). والزيتون من الأشجار المعمرة "تبقى الزيتونة ثلاثة آلاف سنة. وقيل: وكل زيتونة بفلسطين من غرس أمم قبل الروم" (ابن منظور: 1414هـ، ج2، 35). وقيل عنه: "أنه ينفع الغشاوة والبياض، ويجلو العين ووسخ قروحها" (النويري:1423هـ، ج11، 132) وهذا ما ضمنه ابن وكيع في وصفه للزيتون مبيّناً أهميته في علاج الأعين المريضة مبيناً نوعيه الأخضر والأسود في قوله-من مجزوء الرجز (النّويري:1423هـ، ج11، ص132):

انظر إلى زيتوننـا فيه شفـاءُ المهـج

بدا لنا كأعيـن شهل وذات دعـج

مخضرُّهُ زبرجـد مسـودُّهُ من سَبَـج

وقال ابن خلاد في وصف شجر الزيتون - من الطويل (أبو هلال العسكري: ب.ت، ج2، 36):

إذا ذلت الأشجارُ يومـاً لجفـوةٍ فإنَ لها عزَ القناعةِ والصبرِ

تصرفُ في اللذاتِ من كلِّ مطعم تصرفَ زيد آخذاً بقفا عمرو

١٥. العُنَّاب:

هو "شجر شائك من الفصيلة السِّدريّة يبلغ ارتفاعه سِتَّة أمتار وَيُطلق الْعنَّاب على ثمره أَيْضا وَهُوَ أَحْمَر حُلْو لذيذ الطّعْم على شكل ثَمَرَة النبق" (إبراهيم مصطفى وآخرون: ب.ت، ج2، 630).

قال أبو طالب المأمونيّ عن حبّه للعُنَّاب ويصفه بالدُّرِّ - من المجتث (النّويري: 1423هـ، ج11، 143):

يروقني العنّـــاب فلي إليه انصبـــاب

إذ لاح لي منه أطرا ف من أحبُّ الرّطاب

يحكى فرائـــد درّ لها العقيق إهـــاب

١٦. الفستق:

قيل: "إن الفستق لَا ينْبت فِي بِلَاد الْعَرَب هُوَ فِي الْهِنْد وبلاد فَارس" (ابن سيده:1417هـ-1996م، ج3، 231). وقيل:" شَجَرَة مثمرة من الفصيلة البطمية من ذَوَات الفلقتين لثمرها لب مائل إِلَى الخضرة لذيذ الطّعْم يتنقل بِهِ وتكثر زراعته فِي حلب" (إبراهيم مصطفى وآخرون: ب.ت، ج2، 687)، وعنه قال أبوبكر الصَّنوبري يصف الفستق الشَّامي مشبهاً له بالزبرجد - من الطَّويل (النّويري: 1423هـ، ج11، 92):

وحظّي من نقلٍ إذا ما نعتّـــهُ نعتُّ لعمري منه أحسن منعـــوتِ

من الفستقِ الشَّاميّ كلُّ مصونةٍ تصانُ من الأحداقِ في بطنِ تابوتِ

زبرجـــدةٌ ملفوفـةٌ في حريـــرة مضمنـــةٌ داراً مغشـــي بياقـــوتِ

استعان الشاعر بالبديع متخذاً من حسن التعليل وسيلة لإبراز المعنى فهو يعلل لوجود الفستق داخل قشرته ويرى أن ذلك لم يكن أصلاً فيه وإنما يخشى أعين الناظرين. ومن جانب آخر أثبت الشاعر في هذه الأبيات أن الفستق ينبت في بلاد العرب وبذلك ينفي قول بعضهم بأنه ليس من منابت بلاد العرب.

١٧. المشمش:

"مُشْمُش: شجر مثمر من الفصيلة الورديّة، وتُطلق الكلمة أيضاً على ثمر ذلك الشّجر، وهو ثمر يُؤكل غضًّا أو مجفّفًا، يُتَّخذ منه المربيات والشَّرائح أو الرِّقاق المجفَّفة وتُسمَّى قَمَرْدين أو قَمر الدّين" (عبد الحميد:1429هـ-2008م ج3، 2102). ذكر بعض الشُّعراء المشمش في أشعارهم وأعجبوا به، ومن ذلك قول ابن وكيع - من الطويل (النّويري: 1423هـ، ج11، 141):

بدا مشمش الأشجار يذكو شهابه على خضر أغصان من الرّيّ ميّد

حكى وحكت أشجاره في اخضرارها جلاجل تبر في قبـاب زبرجـد

أبدع الشاعر في وصفه للمشمش واستعان في ذلك بتشبيه التمثيل؛ فقد شبهه وهو على أشجاره الخضراء وغصونها المتمايلة بأجراس من ذهب في قباب من زبرجد، فهي صورة شيء أصفر موجود على شيء أخضر مرتفع. ولا يخفى ما أضفته حركة الغصون من جمال.

الخاتمة

بحمد الله وتوفيقه اختتمت هذه الدِّراسة التي تناولت وصف سبعة عشر صنفاً من أصناف الفاكهة المختلفة أوردها شعراء القرن الرابع الهجري في أغراض أشعارهم المتنوعة؛ حيث تناولت كلاً من: الرُّمان، التمر، النارنج، البطيخ، الكمثرى، العنب، السفرجل، النبق، التفاح، التين، الخوخ، الأترج، اللوز، الزيتون، العناب، الفستق، المشمش، وقد رُتبت في الدراسة بحسب كثرة شواهدها الشعرية. وقد تبيّن من خلالها أن كثيراً من شعراء القرن الرابع الهجري اهتموا بالفاكهة وأحسنوا وصفها. وتوصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

١- إنّ وصف الفاكهة شغل حيزاً واسعاً عند شعراء القرن الرابع الهجري.
٢- ارتبط وصف الشعراء للفاكهة - في الغالب - بشيئين: أحدهما تشبيه شكل الفاكهة وألوانها وهيأتها بالجواهر والأحجار الكريمة باختلاف من مثل: العاج، الزّبرجد، اليواقيت، المرجان، العقيق، التبر، اللُّؤلؤ، الزّمرد، الفيروزج، وغيرها، والآخر تشبيهها بالمحبوبة؛ فطعمها برضابها، لونها بصفرتها والحصول عليها بوصلها، فكان لها الأثر الجلي في إبراز جمال المعنى وقوته.
٣- انصب اهتمام الشعراء على شكل الفاكهة وطعمها ولم يعنوا كثيراً بقيمتها الغذائية، وهذا ما يتسق وطبيعة الشعر الجمالية والفنية.
٤- برع الشعراء في توظيف الصورة الشعرية فكان لها الأثر الواضح في إبراز قيمة الفاكهة، والتنبيه إلى أهميتها والتشويق إليها.
٥- جاءت الصورة الفنية ذات أبعاد متعددة برز منها: استخدام ألوان مختلفة صافية وممزوجة لتوضح الصفات الخارجية لأنواع الفاكهة أو محاولة الشاعر لتصوير حالته النفسية وما يعانيه من صدٍّ وهجران محبوبه وغير ذلك.
٦- إن الصور الحسية تستأثر بجانب كبير من أشعار الفاكهة من بصرية، ذوقية، شمية، ولمسية.
٧- غالبا ما تجيء صور الفاكهة في صورة حية متحركة ومرتبطة بالشجرة في الطبيعة.
٨- نظم الشعراء أشعارهم في البحور الشعرية المختلفة وأكثرها وروداً: الطويل، الرجز، الكامل، المنسرح والخفيف.

التوصيات

يوصي الباحث بإجراء دراسات مستفيضة عن وصف الفاكهة عند شعراء آخرين في هذا العصر من أمثال ابن المعتز مع عقد مقارنات بينهم في هذا الموضوع.

المصادروالمراجع

القرآن الكريم.
مصطفى، ابراهيم و الزيات، احمد حسن و عبد القادر، حامد و النجار، محمد على (2008م) . المعجم الوسيط. المعجم الوسيط. ط4. مجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة، مطبعة مصر.
ابن الأثير، ضياء الدين بن محمد (1420ه)، المثل السائر في أدب الكاتب والشَّاعر، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، (ب.ط) المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت.
أحمد بن فارس بن زكريا. (1400ه-1980)، مقاييس اللُّغة، تحقيق وضبط عبد السَّلام محمَّد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
البستي. علي بن محمد. (1410ه-1989م)، الديوان، المحقق: دربة الخطيب ولطفي العسقال، (د.ط)، دمشق
أبو البقاء. أيوب بن موسى. (1419ه - 1998م) الكلِّيَّات، قابله على نسخة خطيّة واحدة للطَّبع ووضع فهارسه عدنان درويش ومحمَّد المصري، ط 2، مؤسسة الرِّسالة.

التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري (المتوفى: 1041هـ) (1968م). نفح الطِّيب من غصن الاندلس الرَّطيب. المحقِّق: إحسان عباس. ط1، عدد المجلدات 8. دار صادر بيروت- لبنان.

الثَّعالبي. عبد الملك بن إسماعيل (1403هـ-1983م)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، المحقق: مفيد محمد قميحة، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي (المتوفى: 471 هـ) (2001م). أسرار البلاغة فى علم البيان. المحقق: عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

الجرجاني، علي بن علي الزين الشريف (ت 816هـ) (1983م). التَّعريفات. ضبطه وصححه جماعة من العماء باشراف الناشر. (ط1)، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان.

الجوهري. إسماعيل بن حماد. (1407هـ - 1987م)، الصِّحاح (تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، (ب.ط)، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان.

بن حمدون، بهاء الدين البغدادي. (1417هـ)، التذكرة الحمدونية، (ط1)، دار صادر، بيروت.

عبد الحميد، عمر. بمساعدة فريق عمل (1429 هـ - 2008م.). معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، (ط1)، عالم الكتب.

الحميري، نشوان بن سعيد. (1420هـ-1999م). شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، المحقق: حسين بن عبد الله العمري وآخران، (ط1)، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان.

الحنفي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي (ت 1094هـ) (2018م). الكلِّيَّات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. المحقق: عدنان درويش و محمد المصري، (ط2) مؤسسة الرسالة – بيروت.

الرازي، محمد بن أبي بكر (1420هـ-1999م). مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد.(ب.ط)، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا.

الرَّاغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد (1420هـ). محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، (ط1)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت.

رينهارت، بيتر (1979م). تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمي، (ط1)، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية.

الزُّبيدي. محمد بن محمد بن عبد الرازق المرتضى ابو الفيض (1965-2001م). تاج العروس من جواهر القاموس، دراسة وتحقيق مصطفى حجازي واخرون . عدد الاجزاء 40. وزارة الارشاد والانباء بالكويت.

الزّركلي. خير الدِّين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (2002م). الأعلام. (ط15) دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

السَّرِي بن أحمد، الرفاء. (1996م). الدّيوان. تقديم وشرح كرم البستاني، مراجعة ناهد جعفر، (ط1)، دار صادر-بيروت.

ابن سيده، علي بن إسماعيل (1421 هـ - 2000 م)،. المحكم والمحيط الأعظم، المحقق: عبد الحميد هنداوي، (ط1)، دار الكتب العلمية – بيروت.

ابن سيده، علي بن إسماعيل (1417هـ- 1996م). المخصَّص، المحقق: خليل إبراهيم جفال، (ط1)، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

الصاحب بن عباد (1422هـ - 2001م)، الديوان، شرحه وضبطه وقدّم له: إبراهيم شمس الدين، (ط1)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان.

الصنوبري. أحمد بن محمد. (1998م)، الديوان، تحقيق إحسان عباس، (ط1)، دار صادر، بيروت – لبنان.

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد. (1404هـ) العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد الغربان، (ط1)، بيروت.

علي بن ظافر، أبو الحسن علي بن ظافر بن الحسين الأزدي وزير مصري (ت 613هـ) (). غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، تحقيق: محمد زغلول ومصطفى الصاوي، (ب.ط)، دار المعارف، القاهرة.

أبو فراس الحمداني. (1414هـ-1994م). الديوان. شرح خليل الدويهي، (ط2)، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان.

الفراهيدي. ابو عبد الرحمن الخليل بن أحمد المتوفي 170 هـ (1984م)، العين. المحقق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، ط1، دار ومكتبة الهلال.

الفيروزآبادى. محمد بن يعقوب، (1426 هـ - 2005م)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، (ط8)، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

ابن قتيبة الدينورى، عبد الله بن مسلم، (1418هـ)، عيون الأخبار. (ب.ط)، دار الكتب العلمية – بيروت.

القيرواني. إبراهيم بن علي بن تميم ابو إسحاق الحُصري المتوفي 453هـ (2001م)، زهر الآداب وثمر الألباب. ضبط وشرح صلاح الدين الهواري. (ط1)، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.

الكتاني. محمّد بن الحسن، 1981م، التَّشبيهات من أشعار أهل الأندلس، المحقق: إحسان عباس، (ط2)، دار الشُّروق، بيروت – القاهرة.

كشاجم. محمود بن الحسين، (1417هـ - 1997م)، الديوان، دراسة وشرح وتحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، (ط1)، مكتبة الخانجي.

ابن معقل، أحمد بن علي، (1424هـ-2003م)، المآخذ على شُرّاح ديوان أبي الطَّيب المُتَنَبّي. المحقق: عبد العزيز بن ناصر،(ب.ط) مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض،

ابن منظور. محمد بن مكرم، 1414هـ، لسان العرب، (ل.ط)، دار صادر – بيروت.

النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني المتوفي 5018هـ (1987م)، مجمع الأمثال، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط1، المعاونية الثقافية للآستانة الرضوية.

النّويري. أحمد بن عبد الوهاب، (1423هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، (ط1)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.

الهاشمي. أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (المتوفى: 1362هـ) (1323هـ)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، (ب.ط)، مطبعة والدة عباس الأول. القاهرة.

(1436هـ - 2015م)، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، علق عليه وشرح غريبه جمعة الحسن، (ط4)، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد ابن يحي بن مهران اللغوي العسكري (1994). ديوان المعاني. ط1 ، دار الكتب العلمية.

الهُنائي. علي بن الحسن. (1988م)، المُنَجَّد في اللغة، تحقيق: أحمد مختار عمر وضاحي عبد الباقي، (ب.ط) عالم الكتب، القاهرة.

الوشاء. محمد بن أحمد، (1371هـ- 1953م)، الموشى (الظرف والظرفاء)، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، (ط2)، مصر- مطبعة الاعتماد.